الموت البيولوجى ٠٠ والخلود الفكرى

دكتور / سعيد اسماعيل على

فى بداية دراستنا فى قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فى الفصل الدراسى الأول من العام ١٩٥٦/٥٥ ، لفت نظرى عنوان كتاب ، فسارعت بشرائه ، رغم ندرة الزاد المادى ، والتهمته قراءة ، من غرابة موضوعه ٠

كان المرحوم الدكتور توفيق الطويل يدرس لنا (مدخل الى الفلسفة). حيث انصب جزء كبير من الحديث على مجالات الدراسة الفلسفية ، والتى كان من بينها هذا المجال الشهير (الميتافيزيقا) والتى كان واضحا أن د٠ الطويل يتشيع لها ٠ فلما رأيت كتابا بعنوان (خرافة الميتافيزيقا) للدكتور زكى نجيب محمود ، دفعنى حب الاستطلاع الى معرفة ماذا يقول فيه ٠ وكانت الدراسة الجامعية فى ذلك الوقت ، وخاصة فى هذا القسم ، غير مصابة بعد بهذا الداء الوبيل المنتشر الآن ، المسمى (الكتاب المقرر) ، وانما كان الأمر أمر (موضوعات) تقرر علينا ، وعلينا أن نفتش بين ما كتب عنها فى مختلف المراجع والمصادر ٠ صحيح أن بعض الأساتذة كانت لهم كتب فى نفس الموضوع، مثلما كان للدكتور الطويل كتابه الشهير (أسس الفلسفة) فى هذا (المدخل) لكن هذا لم يمنعنا أبدا أن نجول فى كتابات مختلفة أخرى : نقرأ عن هذا المذهب ، وذاك الموقف ، خاصة اذا كانت هناك (معارضات) ، و(اختلافات)، وهو الأمر الشائع فى الدراسة الفلسفية ٠

ولم أكن قد رأيت الدكتور زكى نجيب بعد ٠٠

لكن ، ما لفت نظرى فى (خرافة الميتافيزيقا) حقا أمران ، الأول ، احساس بأننى أمام (ثائر) من الطراز الأول ٠٠ ثائر فكرى ، يكاد يقف منفردا أمام جيوش جرارة من معتقدات وأفكار مترسخة لها حماتها ولها دعاتها ٠

الأمر الثانى ، هذه القدرة العجيبة على (التفهيم) ، فالكتاب يعالج جوانب غاية فى التعقيد الفلسفى ، ومع ذلك لم أجد مشقة فى فهمهـــــا واستيعابها ، مع أننى كنت وافدا جديدا على الجامعة تاركا المدرسة الثانوية منذ عدة أسابيع ٠

ولقد اشتد بي الشوق لأن أرى مؤلف هذا الكتاب ، وكنت قد رسمت له - بخيالي - صورة تتسم بعلامات (الثورة) ، من حدة وانفعال وجهـــارة الصوت ، والايقاع السريع ٠٠ الخ ٠

فلما (هل) الفصل الدراسي الثاني ، أصبح علينا أن ندرس(علم المنطق)، حيث قيل أن الذي سيدرسه لنا هو الدكتور زكي نجيب ٠ ٠

جلست على مقعدي ، في بداية المحاضرة ، أو قبلها بقليل ، أترقب المحاضر ، الى أن جاء وبدأ يتحدث ، ومع كل دقيقة تمر ، تزداد الصورة التي رسمها خيالي ميلا الى الاختفاء ٠ لقد كانت الصورة الواقعية مختلفة تماما عن تلك التي رسمها خيالي ٠

ان الذي يقف أمامنا رجل هادىء الى حد كبير ٠٠ صوته غير زاعق ٠٠ يختزل عشرات التفاصيل في جملة قليلة ، بسكينة ملحوظة ، مع أن ماتقوله هذه الجمل القليلة من شأنه أن يشعل نارا !! وتستثير كلماته الهادئة زملاء آخرين ، فيحتدون ويثورون ، والرجل ، على نفس الدرجة من الهدوء والسكينة ٠

ولم يكن مايبشر به من أفكار تتصل بالفلسفة التحليلية فقط هو ماشد انتباهنا ، لكن أمرا ما لفت نظري أنا بصفة خاصة ، وان لم يلفت نظـــر كثيرين ، وكان له أثرا أكبر مما تركه علمه علي ، الى الدرجة التي جعلتني، كثيرا ما اعتمدت على هذه الخبرة ، وأنا أناقش طلابنا في كليات التربيـــة مؤكدا أن (الأستاذ) لايكون أستاذا فقط بعلمه ، لأن الأستاذية لابد أن تكون قوة اقتداء وطاقة تحريك للتغيير السلوكي ، ولايتأتى هذا الا بممارسات سلوكية) يلمسها الطلاب لدى الأستاذ ٠

وفي الوقت الذي كنا فيه ننتظر بعض الأساتذة وقتا طويلا ، ثم نفاجأ باعتذارهم ، أو بعدم حضورهم بلا اعتذار ، وفي الوقت الذي كان موعد محاضرة (س) من الأساتذة الساعة العاشرة ، مثلا ، فيأتي الينا في الحادية عشرة ٠٠ في هذا الوقت ، لازلت أذكر موعد محاضرات د٠ زكي نجيب ، كانت يومي السبت والاثنين ، من الساعة الثامنة الى العاشرة ٠٠ لايتخلف أبدا عن المحاضرات ٠٠ ومع دقات ساعة جامعة القاهرة معلنة الساعة الثامنة، كانت قدماه تعبر باب قاعة المحاضرات رقم (١٢) بكلية آداب القاهرة ٠

انه «الالتزام» ٠٠ تلك الكلمة البسيطة شكلا ، الخطيرة مضمونا وأثرا، والتى يمكنك أن تتخذها معيارا من معايير التفرقة بين التقدم والتخلف ، ففى المجتمعات الزراعية المتخلفة ، تكون وحدة الزمن التى يتعامل بها الناس ، هى (الموسم) الذى يمتد شهرين أو ثلاثة ، ومن هنا تسمع عن ارتباطات تتحدد بأن تكون مثلا (فى القطن) أو (البلح) أو تسمع من يعطيك موعدا لغد (بعد العصر) أو (بعد المغرب) دون تحديد دقيق لساعة بعينها أو جزء منها ٠ ولاغرابة فى ذلك ، فنمط الانتاج الزراعى المتخلف يعود الناس على هذا ، فلا مانع فى مثل هذا النمط من أن تتأجل زراعة نبات ما يوما أو يومين أو أسبوعا ، ولا ضرورة لأن تبدأ بساعة بعينها ٠ والأمر على عكس ذلك بالنسبة لنمط الانتاج الصناعى المتقدم حيث يمكن أن يؤدى التخلف دقيقة واحدة الى خسارة بالملايين من الدولارات أو ضياع أرواح بشر ! !

وعندما أتممت دراستى بكلية الآداب وتحول مسارى الى (التربية) ، وبدأت أعد العدة لعمل (الماجستير) ، كان موضوعا يجمع بين (الفلسفة) و(التربية) ، حتى أفيد العمل التربوى من مخزون الثقافة الفلسفية التى هيأت لى الظروف أن أحصلها طوال سنوات عدة ٠ فاتصلت تليفونيا بأستاذنا أطلب موعدا لأستشيره فى الموضوع ٠

وحدد الرجل الموعد : العاشرة ٠ ٠

ولا أريد أن أثقل على القارىء بالاشارة الى المشوار الطويل الذى كان على أن أسلكه حتى أصل الى كلية الآداب فى هذه الفترة ، المهم أنه ، لأمر ما، تأخرت فوصلت فى العاشرة والنصف وقبل أن أدخل المكتب ، هرع الى (فراش القسم) معاتبا ، بل قل (مؤنبا) : ايه دا يا أستاذ الدكتور ينتظرك منذ نصف ساعة !!

ان التأخير يحدث الآن كثيرا الى الدرجة التى أصبح عندها أمرا (معتادا) ، بل ومشكلا قاعدة والاستثناء هو الالتزام الدقيق بالتوقيت المتفق عليه ، لكن ، لا أدرى لماذا هزنى هذا الموقف البسيط هزا عنيفا وأشعرنى بذنب كبير ظللت أحمله فوق ظهرى حتى الآن ، بحيث اذا اتفقت مع أحد صغيرا كان أم كبيرا ، أفزع الفزعكلهمن أن أتأخر ولو دقيقة واحدة ٠ وهكذا، منذ عام ١٩٦٣ ـ موعد المقابلة مع أستاذنا ـ حتى الآن ، أى مدة ثلاثين

عاما ، قلما يستطيع أحد أن يضبطنى متأخرا عن موعد ما ، الا اذا كان هناك بالفعل أمر (جلل) ٠

وعندما تصدر مجلة (الفكر المعاصر) عام ١٩٦٥ ، اذ بالرجل يكاد يقف وحده فى ساحة كانت مليئة فى ذلك الوقت بالمخالفين فكريا بدرجة واضحة ، وخاصة أنهم كانوا يتسيدون - الى حد كبير - مختلف قنوات النشر ، حتى أننى كنت أشعر بالاشفاق على أستاذنا من كثرة المقالات الحادة التى وجهت صورا متعددة من الهجوم عليه ٠ وكم كان رائعا ، وأستاذا مفكرا حقا عندما وجد نفسه مضطرا أن يكتب مقالا بعنوان (درس فى التحليل) حاول فيه أن يظهر (تهافت) الأسس التى استند اليها البعض ، بل أن نقدهم وهجومهم يظهر غياب وعى فاضح ، حتى بالمبادىء الأساسية للفكرة التى يهاجمونها مما جعلهم يحتاجون بالفعل الى (درس) يعلمهم اياها !!

كذلك كان دقيقا ورائعا الى حد كبير عندما كتب (الماركسية منهجا) مما كان يعد منه شجاعة واضحة فى ظل مناخ الستينات فكشف عن نقاط سلبية، تمر السنون ، فاذا بنا ، فى القليل من السنوات الماضية نتيقن من صدقه ٠

وكم كنت سعيدا الى درجة يصعب وصفها عندما وجدت الرجل ينشر لى ، لأول مرة فى حياتى دراسة ، وفى بدايات عمر (الفكر المعاصر) ، وأنا لم أزل بعد (معيدا) ، حيث كان العنوان عن نقد للفيلسوف الأمريكى (جون ديوى) لمنطق أرسطو ٠

لقد كان حريصا على انتقاء البذور ، وتعهدها بالسقى والرعاية ٠٠ وتلك هى مهمة الأساتذة العمالقة الذين يختفون (بيولوجيا) ، ويكتب لهم الخلود (فكريا) !